مع الرفيق الروائي محمد عيتاني

اسم محمد عيتاني لا يلفت انتباه القارئ العربي عموماً. فهو غير معروف. ومؤلفاته والكتب التي ترجمها، وكان رائداً في ذلك، ربما لم تتجاوز حدود بلده لبنان. لكن ذلك لا ينتقص من قيمة الرجل، ولا يضيره. فمحمد عيتاني هو أديب لبناني كبير. كاتب قصة، وروائي، وناقد اجتماعي ساخر من الدرجة الرفيعة. وهو مترجم لعدد كبير من الكتب المتعددة المواضيع في الأدب وفي الفكر النظري وفي الفكر السياسي. لكنه، أسوة بعدد من المبدعين في الأدب والفن والفكر، مظلوم في حياته، ومظلوم بعد الرحيل. واستمرار الظلم الذي يمارس ضد المبدعين هو آفة عربية، تستمر وتتمادى في كل الاتجاهات، وعلى كل المستويات وفي مختلف الظروف.

فمن هو محمد عيتاني؟

وُلد محمد عيتاني في بيروت في عام ١٩٢٦. وغادر الحياة في عام ١٩٨٨. كان والده يعمل فراناً. وكان يمارس الآذان كهواية. أما والدته فكانت فلاحة حين كانت بيروت في خمسينات القرن الماضي ما تزال قرية كبيرة مليئة بالبساتين. تعلَّم محمد الأبجدية، وحفظ "جزء عمّ" من القرآن في "شيخة" المحلة (الكتّاب) وكان في الثالثة من العمر. تلقى تعليمه الابتدائي والتكميلي في المدرسة الأزهرية التابعة لأزهر لبنان. ثم انتقل إلى مدارس المقاصد الإسلامية في بيروت. ونشرت له في تلك المرحلة أول قطعة أدبية في المجلة المدرسية، بعنوان "مركب الاستقلال" (١٩٤١). أنهى دراسته الثانوية في عام ١٩٤٦. ثم انتقل إلى الجامعة الأميركية حيث أمضى عامين في الدراسة في كلية التجارة. لكنه لم يتابع دراسته، مفضلاً جامعته هو على الجامعات التي تخرِّج أكاديميين. وبدأ يتردد على دار الكتب الوطنية للقراءة على امتداد سنوات عديدة. ثم التحق بالتعليم الرسمي ليدرِّس مادة الأدب العربي في الكلية الجعفرية في مدينة صور، وفي مدرسة "الجيل الجديد" في السويداء في سوريا.

تعرَّف في عام ١٩٤٨ إلى العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي، الذي عرَّفه على ألبير أديب صاحب مجلة "الأديب" التي كانت تصدر في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، حيث نشر أول مقالة له فيها بعنوان: "لمحة من عالم فاليري". واستمر في نشر مقالاته في مجلة "الأديب" خلال سنواتها الأولى. ثم تابع الكتابة في مجلة "الثقافة الوطنية"، منذ أن بدأت في الصدور في عام ١٩٥٢ حتى توقفها عن الصدور في عام ١٩٥٩. أما أكثر كتاباته القصصية والروائية فقد نشرها في جريدة "الشعب" اليومية وجريدة "الأخبار" الأسبوعية، وفي مجلة "الطريق" الشهرية خلال ستينات القرن بشكل خاص. ومارس الترجمة منذ أوائل الخمسينات. وشملت ترجماته العديد من الكتب ذات الطابع الأدبي والفني والبحثي والنظري. ومن أهم تلك الترجمات كتاب "علم الجمال" للفيلسوف الماركسي الفرنسي هنري لوفيفر (HENRY LEFEVRE)، وبعض

كتب للمفكر الماركسي الفرنسي روجيه غارودي. كما ترجم مسرحية "الأرغانون الصغير" للكاتب المسرحي الألماني برتولد برشت، وروايات للروائي البرازيلي جورج أمادو، ومسرحية "تألق جواكان موربيتا" للشاعر التشيلي بابلو نيرودا، وكتاب "الإيديولوجية المعاصرة" للمفكر المغربي عبد الله العروي. وتصدى في شكل مغامرة لترجمة الجزء الأول من كتاب "راس المال" لكارل ماركس. لكنه لم يذهب في ترجمة هذا الكتاب إلى النهاية، لأنَّ المهمة كانت شاقة عليه وكانت أكبر من إمكاناته المعرفية، رغم سعة ثقافته. أما أعماله القصصية والروائية التي نُشرت في كتب فهي مجموعته القصصية الأولى "أشياء لا تموت"، وقصته الطويلة "متراس أبو فياض"، ومجموعته القصصية الثانية "مواطنون من جنسية قيد الدرس"، وروايته الأولى "حبيبتي تنام على سرير من ذهب"، وروايته الثانية " تحت حوافر الخيل". وكان قد أضاع روايات أخرى وأحرق الباقي. ونشر في مجلة "الطريق" قبل وفاته الفصول الثلاثة الأولى من سيرته الذاتية بعنوان "نهر الزمان". وكتب العديد من الأبحاث في النقد الأدبي. كما كتب في السياسة في صحف ومجلات عديدة، كانت مجلة "كل شيء" واحدة منها. وكانت أهم كتاباته في السياسة ما تضمنته زاويته اليومية في جريدة " النداء" بعنوان "ابتسامة". وهي من روائع الأدب الساخر.

لقد ربطتني بمحمد عيتاني صداقة قديمة، تعود في بداياتها إلى أول الخمسينات من القرن الماضي. التقينا أول مرة في مكاتب مجلة "كل شيء"، حيث كان هو والشيخ عبد الله العلايلي وعدد من كبار أدباء تلك الحقبة ينشرون كتاباتهم النقدية على صفحاتها. وكنت قبل أن ألتقي بمحمد قد نشرت في تلك المجلة بعض خواطري (١٩٤٧) تحت عنوان "خواطر من الكوخ". ثم التقينا بعد ذلك في مكاتب مجلة "الثقافة الوطنية"، ثم في منزل حسين مروة، ذلك الفضاء الرحب الذي كان يلتقي فيه المثقفون التقدميون من شتى المدارس الأدبية والفنية والفكرية، ويتحاورون ويتجادلون فيما بينهم في كل شأن من شؤونهم في عالم الأدب، وفي كل شأن من شؤون الأمة. وظللنا نلتقي، باسم الصداقة التي نشأت وتوطدت بيننا حتى لحظة وفاته. وقد هيأتني هذه المعرفة بمحمد عيتاني لأن أرقب عن كثب التطور الذي شهدته شخصيته الإنسانية وشخصيته الأدبية والثقافية عموماً. وأشير هنا إلى ظاهرتين في أدبه. تعبِّر الأولى عن الروح الساخرة في كتاباته النقدية الاجتماعية والسياسية، التي كان يطل بها كل صباح على قرَّاء جريدة " النداء" في زاويته المعروفة بعنوان "ابتسامة". في حين تشير الثانية إلى فنّه القصصي البديع المتمثل خصوصاً في مجموعته القصصية الأولى "أشياء لا تموت". وبين الابتسامة والأشياء التي لا تموت علاقة إنسانية لا يعرفها جيداً، ولا يدرك مداها، ولا يقدّرها حق قدرها، إلاَّ مَنْ عرف محمد عيتاني بتفاصيله كلها. وما أكثر هذه التفاصيل في حياة العيتاني البيروتي، الحريص جداً على تأكيد انتمائه إلى مدينته بيروت وإلى منطقته التي اسمها رأس بيروت، حيث ولد وعاش سنوات حياته كلها فيها. وإذا كان النقد الساخر في الابتسامة مليئاً بالإشارات إلى كل

الجهات من دون استثناء، بما في ذلك إلى الذات الفردية عنده وإلى ذات الجماعة السياسية اليسارية التي كان ينتمي إليها، فإنَّ الأشياء التي لا تموت، حتى بعد موتها، في حكاياته عن منطقة "رأس بيروت" لا تخرج عن النهج ذاته في الاشارات والتحولات داخل تفاصيل الحياة اليومية لأهل منطقته ومدينته ولأهل بلده لبنان. والذين يعرفون محمد عيتاني يدركون، من دون عناء، كم كان فردياً في أحاسيسه، وكم كان اجتماعياً في الآن ذاته، اجتماعياً بمعنى الانتماء إلى جماعة بعينها وبمعنى الانتماء إلى مجتمع بعينه. وهو، إذْ أصبح شيوعياً على طريقته منذ وقت مبكر، حتى قبل أن تنضج في وعيه وفي معارفه الفكرية والسياسية المعاني الدالة على هذا الانتماء، صار يمتلك في شخصه عدة شخوص، أو على الأصح حالات إنسانية عديدة. وقد أهلته هذه الخاصية في شخصيته إلى الإندماج بسرعة فائقة في المعارك الأدبية لتلك الحقبة باسم الواقعية الاشتراكية مع جيل كامل من الأدباء الكبار في لبنان وسوريا ومصر على وجه الخصوص.

لكن اندماج العيتاني هذا في المعارك الأدبية والفكرية والسياسية لم يكن اندماجاً ساذجاً. ولعلَّه كان يدرك بوعي حاسم أو بوعي غير مكتمل، أي بعفوية الفنان الأصيل، أنَّ ثمة صيغة لاندماج الأديب والفنان في مشروع سياسي معين لا تقود بالضرورة إلى أن يتخلى هذا الأديب وهذا الفنان عن خصوصيته. وكما أعرف فإنَّ أحداً لم يطلب منه ذلك. ولم يكن هو مستعداً للانصياع إلى طلب من هذا النوع أياً كان مصدره. لذلك كنا نراه وهو يبدع أدباً راقياً في جودته وفي أصالته، يمارس الالتزام التام بالفكر الذي انتمى إليه، ودائماً على طريقته هو وفي فهمه هو لمعنى الالتزام البعيد كل البعد عن الالتزام الحزبي الضيق.

غير أن محمد عيتاني المتعدد الشخصيات، أو، على الأصح، المتعدد الحالات الإنسانية في شخصيته كأديب وكسياسي وكناقد اجتماعي، يبدو لي مختلفاً عن آخرين ممن عرفتهم من أدباء وفناني الحقبة الماضية، في العلاقة الداخلية بين شخصياته وحالاته الإنسانية المتعددة الأبعاد. فهو كان سريع الانتقال من حالة إلى أخرى في أزمنة قصيرة، بحيث لا تستطيع اللحاق به وبتحولاته. لذلك فإنَّ مَنْ لا يعرفه جيداً بتفاصيله كلها، ومن لا يعرف سيرته كلها، لا يستطيع أن يحدد شخصيته العامة، الأدبية والسياسية والإنسانية، حتى ولو امتلك الكثير من هذه المعرفة التي تقدمها للقارئ والناقد آثاره الأدبية بتنوع ميادين الإبداع فيها.

ولعل الأساس المكون لهذه الظاهرة في تحولات محمد عيتاني السريعة الملاصقة لحياته هو القلق الذي ظلَّ مرافقاً له يؤرقه ويؤرق أصدقاءه. فهو كان مسكوناً بالقلق إلى حد الجنون. وكثيراً ما كان يتصور نفسه واحداً من أولئك الذين لا مكان لهم بين العقلاء من بني قومه ومن أصدقائه ورفاقه على وجه الخصوص. ولقد اضطر لزيارة تلك الأماكن الخاصة للعلاج أكثر من مرة. وبمقدار ما كان ذلك القلق يربك حياته ويحيِّر أصدقاءه ورفاقه كان يشكِّل، بالنسبة إليه، واحداً من مصادر الإبداع الذي تنوعَّت أشكاله

وأجناسه، قصة ورواية وكتابة نقدية وهمهمات فكرية كانت تذهب به في اتجاه المستحيل، فيصطدم بهذا المستحيل من دون أن يدمى فيه، بفعل ذلك الاصطدام، شيء أغلى من الروح.

فاجأه الموت في عام ١٩٨٢ حين فقد ابنه البكر حسن، الذي كان قد أعطاه اسم والده الفران والمؤذِّن. فالعيتاني معروف بالنسبة لأصدقائه باسم "أبو حسن". مات حسن غرقاً. ولم يكن محمد بحاجة إلى موت ابنه حسن لكي يشعر بالموت يلاحقه كظله. لكنه لم يكن قط من الذين يخافون شيئاً أو حدثاً. إذ هو كان شجاعاً في زمن الصعوبات. لكن الخوف من الموت، الموت جوعاً، والموت ألماً، والموت كرباً، والموت بسبب مرض ما، الموت هذا كان، بالنسبة إليه، الوجه الآخر للشجاعة. هكذا هي حياة الأديب والفنان. إذ هو، في الآن ذاته، شيخ وطفل، عملاق وقزم، شجاع وجبان، مقدام وخجول. وهكذا دواليك في تناقض الصفات وتوحدها.

إلاَّ أنَّ من سمات محمد عيتاني، التي تشكِّل جزءاً أساسياً من تكوينه، أنه كان عاشقاً للحياة، وعاشقاً لأجمل ما في الحياة، النساء. كان يعتبر نفسه صاحب نساء العالم جميعاً، من دون استثناء، ومن دون تمييز، ومن دون شريك. وإذ كانت الخيبة شريكه في معظم، بل في كل، مغامرات العشق التي تعددت أزمنتها ووجهاتها، فإنه كان ينقبض على نفسه، ويدخل في ذاته، يحشر نفسه في مشاعره وفي ثناياها، ويتحول إلى طفل بكل معنى الكلمة. وكان كلما استيقظ من حالة من حالاته تلك يعاود الكرة مرة ثانية وثالثة، ومن دون نهاية. وخلال كل ذلك التنقل السريع من حالة إلى حالة أخرى كانت تخرج إلى الحياة، من أحشاء مواهبه الأدبية ومن رحمها، أجناس أدبية هنا، وأجناس أدبية هناك تستعصي على الموت إلاَّ إذا قتلها هو بنفسه. وما أكثر ما قتل من أعماله الأدبية، حرقاً وتمزيقاً. ثم كان يندم على ذلك. وكان الندم يتلف أعصابه ويؤرق من حوله من أصدقائه. وهو يعترف بذلك في رسالة إلى صديقه عاصم الجندي وجهها إليه يقول فيها: "أخي عاصم. كان بودي أن أرسل لك قصة قصيرة من أعمالي الأساسية. لكن الواقع أنني أحرقت أول أمس ما لديّ من أوراق قديمة ومخطوطات جديدة، كان بينها أربع روايات وعشرات القصص، كالتي قرأتها لي وربما أجود. فبعض النقاد الذين أحترم يؤكدون على أنني أصبحت متخلّفاً من ناحية المضمون والشكل ومن جهة اللحاق بالواقع. ربما كانوا على حق. لكنني لا يمكن أن أكتب سوى تجربتي وقناعتي الفنية. الآن أنا بدون تراث عدا ما نشرته وما لم يجمع في "أشياء لا تموت" من قصص أخرى".

ويقول في رسالة إلى صديقه محمد دكروب بأنه فقد رواية أساسية عنوانها "حكاية الواحد والمتعدد" التي كان قد أرسلها إلى مجلة "جيش الشعب" السورية. كما فقد رواية أخرى عنوانها "البيوت القديمة" التي كان قد أرسلها إلى مجلة "بيروت المساء". وكان محمد دكروب أقرب أصدقائه اليه. وكان كاتم أسراره وأحزانه. كما كان شريكه في معاناته.

هذه الفوضى في حياة محمد عيتاني وفي عمله وفي كتاباته كانت سمة عفوية من سماته أرهقته كإنسان وكأديب على امتداد حياته. إلاَّ أنَّ سمة أخرى مهمة من سماته لا يجوز إلاَّ أن نشير إليها عندما نتحدث عنه وعن سيرته. فهو كان يتمتع في لحظات أساسية من حياته بشجاعة الرجل الواثق من نفسه. إذ كان يعبِّر عن رأيه بقوة وحسم وبسخرية مرة عند الضرورة، سواء في موضوع أدبي، أم في موضوع سياسي، أم حتى في موضوع ذي طابع فكري يتعلَّق بالاشتراكية. كنت أراه في تلك اللحظات رجلاً كبيراً سيد نفسه بعنفوان. إلاَّ أنني كنت أراه في الوقت عينه حائراً بين كونه سيداً لذاته الفردية وبين كونه أسيراً لذاته الجماعية. وكانت السخرية في تلك اللحظات وسيلته للتعبير عن موقفه عندما كان لا يجد سبيلاً آخر لإقناع محاوره بغيرها. وكان لاذعاً سليط اللسان. تسعفه في ذلك لغة فائقة الجمال. إلاَّ أنَّ هذه السمة صارت تفارقه بالتدريج كلما كان يتقدم به العمر، وكلما كان يشتد عليه المرض، وكلما كانت أحداث الحرب الأهلية توغل في أعماقه مرارة وأسى وحيرة وتدخل اليأس في روحه. وكانت الكتابة في كل الأحوال، بالنسبة إليه، علَّة وجوده. كانت ملاذه الأول والأخير. إذ كانت تحتوي على كل ما كان يملكه من أحاسيس فردية وجماعية، وما كان يزدحم في رأسه من أفكار. وكانت الكتابة تنصاع لإرادته. وكانت في أحيان كثيرة من النوع الذي يعرَّف بأنه السهل الممتنع في الكتابة. لكنه، عندما اقترب من أيامه الأخيرة، صار شديد الحزن والاكتئاب. وتوقف قلمه عن الابداع. لكأنه كان يحس بعبثية القول وبعبثية التعبير عما في داخل نفسه. فقرر الصمت احتجاجاً. وسرعان ما غادر الحياة. إذ كان الصمت عنده عدو الحياة ونقيضها. فاختار الصمت حين قرر من دون إعلان، وربما من دون إدراك، مغادرة الحياة.

كانت لي مع العيتاني في كل مراحل حياته لقاءات حميمة، بعضها مبهج وبعضها حزين. وكان في السنوات الأخيرة من حياته يكثر من زياراته لي في منزلي هامساً ببعض شجونه وهمومه ما هو مادي بحت منها، وما هو سياسي، وما هو حزبي، وما هو إنساني. وكنت أشعر بالعجز عن تقديم ما يمكن أن يساعده في الخروج من حالاته المضطربة تلك إلا بالقليل المتوفرة شروطه. وكان ذلك يخلق عندي هماً وكرباً. وكان يؤرقني. وما زلت كلما تذكرته أتذكر تلك اللحظات، فتعود إليَّ حالات الهم والغم، وحالات الحزن الذي يدمي الروح. وكان للعلاقة بيني وبينه معنى فيه بعض الإختلاف عن العلاقة التي كانت بينه وبين أصدقائه الحميمين الآخرين، وفي مقدمتهم محمد دكروب وحسين مروة وعبد الله العلايلي وعلي سعد وآخرون. إذ كنت بالنسبة إليه، بحكم موقعي السياسي، مرجعاً اختلط فيه الجانب السياسي بالجانب الإنساني. وكان يحرص هو على تحديد معنى تلك العلاقة بكلماته المؤثرة البليغة في دلالاتها. لكنني كنت أحرص على جعل تلك العلاقة تتجاوز بالإنساني فيها السياسي والحزبي وموقعي فيها.

كانت المراسلات بينه وبين أصدقائه واحدة من أكثر الوسائل ترويحاً عن النفس وعن الانقباضات التي كانت تدخله في الوحشة. فكانت تلك الرسائل وسيلته إلى التعبير عن قلقه وعن مشاعره وعن الحيرة عنده بين اليأس الداهم والتفاؤل الذي يشكل خشبة الخلاص المؤقت. وفي المقطع التالي المأخوذ من رسالة وجهها إلى حسين مروة، عندما كان هذا الأخير في موسكو (أواسط السبعينات من القرن الماضي) يعد موسوعته "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية"، تبرز بعض نماذج من الحالات التي كان يمر بها عيتاني، وكان يحرص أن يشرك أصدقاءه الحميمين في همومه فيها. يقول في تلك الرسالة:

"... ويا أبا نزار،

أظنك تعرف مأساتنا الحقيقية الأساسية، وموضوع اعتزازنا، التي هي مأساتك إلى حد كبير أو محدود، وموضوع اعتزازك أيضاً. وإن كنت أنت قد وجدت للمشكلة حلاً بطولياً وبسيطاً، الإخلاص بلا حدّ، وإثبات هذا الإخلاص في الانهماك بالعمل الفكري والنضال العظيم، إلاَّ أنَّ مأساة أمثالي هو أنني أسأل في هذه الأيام الخطيرة عن مكان الفن . أي الكتابة القصصية . في هذا الاحتدام الملحمي (اليومي) لأحداث نضال شعوبنا، وكيف وماذا أكتب، وأيها أجدى وأوفى بضمير الإنسان والأديب: الانطلاق في غمار المعركة اليومية، أم الهدأة الدراسية المجوّدة المعمّمة والمعمّقة لأعمال فنية تصور بطولات زمننا وقضاياه الإنسانية ووجوه أشخاصه وتيارات تجاربه؟ على هذين الجوادين معاً أحسّ أن ساقيّ تتمزّقان، وأن جسمي كله، من أصابع القدمين حتى الرأس المخفوض الملتهب المحموم، مشقوق بفأس التاريخ. وحتى تمزُّقات "هاملت" تصبح ضعيفة التعبير في مثل حالي. فهاملت طرح قضايا غيبية . إنسانية، عبر تعبيرات شاعر كبير، ونحن ينكرنا شعب بكامله أصبح مختلفاً عنا، في ذواتنا، ويسأل عنّا بصرخات دامية!".

وقد كتب الكثير في تقييم أدب محمد عيتاني. وكان محمد دكروب أكثر من كتب في هذا الميدان. لكن من أجمل ما كتب عن عيتاني فقد جاء في المقدمة التي وضعها لمجموعته القصصية "أشياء لا تموت" صديقه الطبيب الأديب علي سعد. يقول سعد: "... ولعلَّ صفة الوفاء للماضي هي أبرز صفات محمد عيتاني، في مجموعته القصصية هذه. وقد ينكر هذه الحقيقة بعض الذين لا يعرفون من محمد عيتاني غير سطحه المزروع أحياناً بأشواك مسنونة من لواذع الكلم. فأنا لا أعرف كثيرين يحافظون مثلما يحافظ محمد عيتاني على هذا الخط الطويل الواحد في نظرته للدنيا وعلى صداقته العميقة للأشياء وللوجوه التي زرعت في دروب عمره، وخاصة تلك التي طافت بأيام طفولته وشبابه. وقلائل هم الذين يندفعون مثلما يندفع محمد عيتاني في منافحته عن الأفكار والمفاهيم التي يتعلق بها، وفي دفاعه عما يحب وعمن يحب، وفي منازلته لكل ما يحسبه خطراً على الواقع الذي أحبه أو على العالم الذي يشتهي أن يقوم وفقاً لمفاهيمه. ولست أمنع

نفسي من الذهاب إلى حد الاعتقاد أن عنف اللهجة الساخرة وطراوة اللسعة المدمرة، التي يحسن قصَّاصنا تصويبها بين الفينة والفينة، ليسا إلاًّ نوعاً من السلاح الواقي الذي يستخدمه صاحبنا دفاعاً عن الأجواء والذكريات الحبيبة إلى نفسه والتي يود لها البقاء والاستمرار في عالم يتغير أكثر مما يتصور".

والمعروف عن محمد عيتاني أنه نموذج فذ للبيروتي. وكان يبرز ذلك في نمط عيشه وفي لباسه وفي لهجته وفي أحاديثه التي لا تنتهي عن بيروت وأهلها وعن تاريخها وتاريخهم. كما كان يبرز في نوع النكات الساخرة التي تنطلق منه بعفوية وبسهولة، وكأنها تخرج من مكان معد سلفاً لكل حالة من الحالات ولكل ظرف وفي اتجاه حدث معين أو شخص معين.

وكان من المفترض أن تظهر للعيتاني، إضافة إلى مجموعته القصصية هذه، روايتان كاملتان عن شخصية بيروت. لكنهما ضاعتا، أو لم تكتملا. كذلك كان من المفترض أن تنتهي كتابته لسيرته الذاتية، التي نشر منها فصولاً في مجلة "الطريق". لكنها لم تكتمل، أو أنه لم يتابع كتابتها حين فاجأته الكآبة الأخيرة وانتهت في نهايتها حياته. ولم تفلح في معالجته جهود صديقه وصديق الأدباء والفنانين الطبيب النفسي الدكتور عبد الرحمن اللبان.

ويشير المقطع التالي المأخوذ من نص كانت جريدة "الأومانيته" الفرنسية قد نشرته له في أواسط الثمانينات، قبل عامين من وفاته، يشير ذلك المقطع إلى الطريقة التي يتحدث فيها عن بيروت المدينة التي كانت تشكل جزءاً حميماً وعميقاً في حياته منذ طفولته حتى آخر لحظة من حياته. يقول محمد عيتاني:" ظللت زمناً طويلاً أعتقد أن بيروت هي موجة من البحر، أو بالأصح قطعة من المياه الزرقاء، الشديدة الزرقة، الساحرة، الضاحكة، التي تتمرَّى فيها شمس الظهر. زمناً طويلاً، قلت، ربما عامان أو ثلاثة أعوام، وربما لحظة، وربما الأبدية. قطعة البحر تلك هي، ربما قبل وجه أمي، أو ما شاهدته وأحسسته من وجود مدينتي وسياق أيامي، وأنا أركب أمام جدّي "أبو خليل" على حماره الأبيض الصغير، في أول نزهة لي عبر طرقات المحلة. ثم كان البحر. وحتى الآن، وقد جاوزت الستين، واشتعل رأسي شيباً، دون أن يمس خضرة نفسي ولا جنون طموحاتي. حتى الآن ما زلت أعتقد أن بيروت هي خارج بيروت، في الذكريات لا الجدران، حتى جاءت الحرب الأهلية الحاضرة، فقسمت مدينتي الكبيرة. دمرت، هجرت، غرَّبت الناس من ساحات وسطها، وجوَّفت عدداً لا يُحصى من الأبنية والقلوب، وأقامت للموت بؤراً وهياكل. ولكن من هذه الشوارع الغبراء، والمنازل المهدمة، التي تنظر بعيونها العميقة المجوفة إلى دبابات المحتل الإسرائيلي، ارتفعت القبضات الوطنية، التي تقول بالرصاص "لا" للعدو، "لا" للموت. في ثنايا هذه الشوارع، وعلى هذا التراب الذي يحمل آثار أمي وجدتي، وحيث حملت ولدي البكر "حسن" (١٧ عاماً) إلى جانب الآخر من المرآة، وُلدت بدايات المقاومة الوطنية، فأنقذت شرفنا الوطني، وحفزت دمنا المهدور".

هذا هو محمد عيتاني الأديب اللبناني الذي نسيه اللبنانيون، ولم يعرفه العرب إلا قليلاً. ونسيان الكبار، مثل الجهل بهم، ظلم للثقافة العربية وظلم للأجيال الجديدة، التي بمقدار ما تعمق علاقتها بالتراث الثقافي لشعوبها تحقق المعنى الذي تشير إليه الهوية الثقافية التي ينتمون إليها. وتحقق في الوقت عينه بعلاقتها بتراثها الثقافي الانطلاق في هذه الثقافة بالذات إلى الانتماء للحضارة الإنسانية والى العصر وتحولاته الكبرى، وإلى التفاعل من خلال ذلك مع ثقافات الشعوب الأخرى، إغناء متواصلاً للحضارة العالمية الجديدة، وتعميقاً للطابع الإنساني فيها.